دنيا.. كلما طغت الفكرة فسدت الرؤية السينمائية

◆ محمود الغيطاني

ناقد سينمائي / مصر

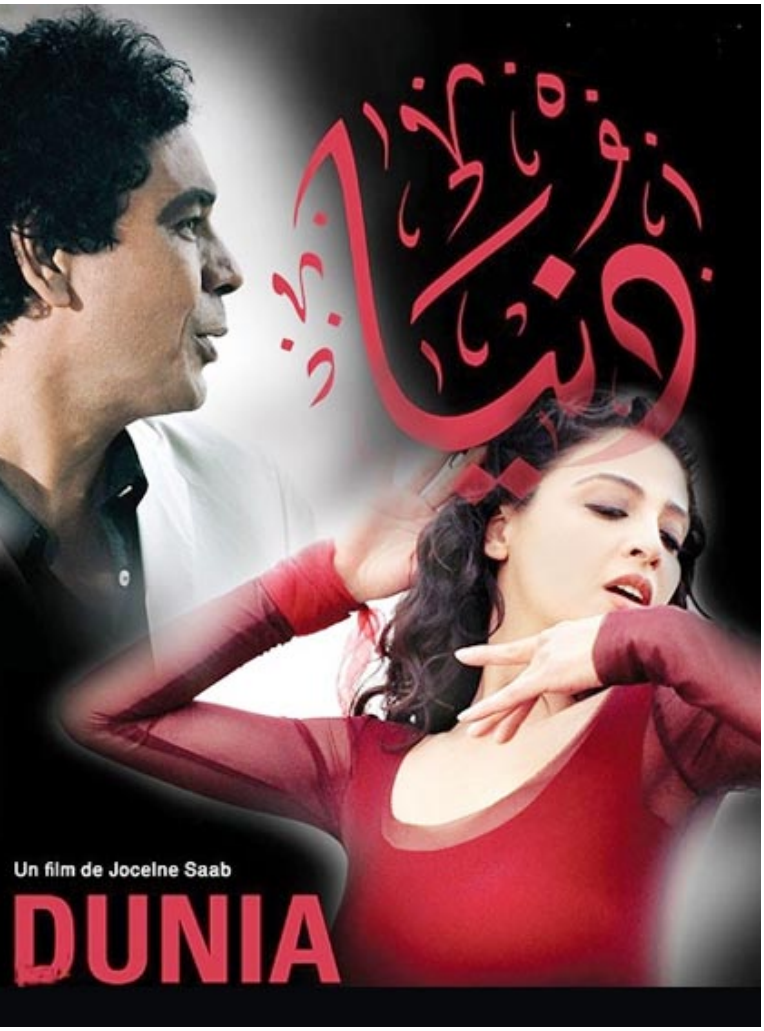

هل من الممكن طغيان الفكرة على العمل الفني ومتى تصبح هي الأساس الذي يتحرك من خلاله المبدع- و من أجلها فقط- حتى انه لينسى كل شيء سواها؟ وماذا لو حدث ذلك و سيطرت الفكرة بهذا الشكل الخانق على مبدعها، حتى أنها لتطل بين الفينة والأخرى من طيات العمل الفني برأسها كي تخرج لسانها لكل من المبدع و المتلقي معا؛ لتصرخ في وجهيهما (ها أنا ذا)؟

أظن أن طغيان الفكرة بهذا الشكل لابد ان يفسد العمل الفني تماما لينهار بنيانه في نهاية الأمر لصالحها، و من ثم تصبح جميع تفاصيل هذا العمل وتنويعاته المختلفة مجرد أوجه متشابهة- إن لم تكن متطابقة ومجموعة من المرايا- لذات الفكرة الملحّة التي تمسك بخناق الطرفين- المبدع والمتلقي- ومن ثم يتحول الأمر إلى جحيم خانق للجميع مما يؤدي في نهاية الأمر إلى الفشل الذريع نتيجة سيطرتها.

أعتقد أن مثل هذا التساؤل لا بد أن يستدعي بالضرورة مجموعة أخرى من التساؤلات والتأملات الهامة عن ماهية العمل الفني ودوره الاجتماعي أو الفني، وبالتالي لا بد لنا أن نتساءل متأملين ماذا لو حاول الفنان- من خلال عمله الفني- تقديم مقطع من الحياة، ولكن دون إلباسها ثوب الفضيلة أو الأفكار الثقافية والتفلسف، و أنه لا بد من وجود دور اجتماعي هام يلعبه هذا الفن؟ أو بمعنى آخر لما لا يحاول الفنان التأمل فقط من خلال عمله الفني المطروح على الجمهور دون الزج بأيدلوجيته الخاصة وأفكاره التي يريد أن يقولها، ثم يترك العمل في نهاية الأمر للمتلقي الذي لا بد سيتجاذب أطراف التفكير معه، فإما أن يتحرك من أجل محاولة التغيير أو يظل مكانه ساكنا و لكن بعد إثارة زوبعة ذهنية داخله؟

علّ هذا التساؤل الأخير يذكرني بالفيلم الجميل "أسرار البنات" لمخرجه "مجدي أحمد علي" 2001، والذي كان أهم ما يميزه ويعطيه أهميته أن جميع صنّاع الفيلم بلا استثناء قد التزموا من خلاله الجانب الحيادي التام والموضوعية الصادقة التي لا تدين أحدا- و لا ترجح هذا الجانب أو هذا الفكر أو التيار على الآخر- و من ثم خرج الفيلم مكتملا تماما من حيث موضوعيته ليترك الأمر في النهاية للمشاهد الذي لا بد سيتفاعل مع الأمر إما بالإيجاب أو السلب، ويكفينا في نهاية الأمر أن الفيلم قد أثار داخل المشاهد الكثير من التأملات، سواء كانت هذه التأملات دافعة للتغيير، أو لمجرد النقاش فقط حولها، ولكن الذي يعنينا في النهاية أن الفيلم قد التزم بحياديته دون الانسياق الملحّ حول الفكرة ومن ثم يؤدي ذلك- الانسياق للفكرة- إلى إفساد الفيلم.

ربما كانت هذه التساؤلات والتأملات الهامة وغيرها الكثير هي ما يدور في أذهاننا أثناء مشاهدتنا لفيلم "دنيا" لمخرجته اللبنانية "جوسلين صعب"؛ لأن الطغيان القوي للفكرة التي تقدمها قد أفسد علينا تماما متعة مشاهدتنا لهذا الفيلم الذي كان من الممكن أن يكون فيلما هاما ومكتملا وناضجا لولا الإلحاح الشديد والدائم على فكرته الجميلة التي أراد الفيلم طرحها، فأدى ذلك بالرغم من وجاهة الفكرة إلى إفساد العمل الفني تماما.

وبالرغم من كون الفكرة لدى "جوسلين صعب"- كما قلنا آنفا- جميلة ومقبولة، إلا أنها بدت من خلال الفيلم شديدة الالتباس؛ ربما لعدم اكتمالها بالقدر الكافي ومن ثم عدم نضجها، فخرجت لنا تكاد تكون شائهة أو (مسلوقة) على حد تعبير القول الجاري على ألسنة المصريين؛ فتارة نشعر أنها ترغب التركيز على فكرة فن الاحتفاء بالحياة ومن ثم عيشها كما ينبغي لها أن تعاش، وتارة أخرى نشعر أنها تريد نقاش فن الاحتفاء ومن ثم اكتشاف الجسد والتصالح معه والتعرف عليه باعتباره منطلقا أساسيا للتصالح مع النفس، وليس مجرد سجنا خانقا أو تابوتا نظل محبوسين فيه منذ لحظة ميلادنا؛ وبالتالي فنحن ننظر إليه نظرة دونية- في مجتمعاتنا العربية- على الرغم من أهمية اكتشافه، وتارة ثالثة نراها تحاول نقاش قضية هامة جدا- بذلنا فيها الكثير من الجهد والوقت للحد من استشراءها- ألا وهي قضية ختان الإناث والتأثير السلبي الخطير العائد على الفتاة ومن ثم المجتمع فيما بعد نتيجة لهذا الفعل الحيواني والإجرامي في حق إناثنا.

نقول أن هذا الالتباس الشديد لدى "جوسلين

صعب" قد أصابنا بحالة أقرب إلى الدوار طوال مدة مشاهدتنا للفيلم وبالتالي كلما مضى مشهد من مشاهده كنت أنتظر المشهد الذي يليه علّه يوضح لي أكثر ما الذي ترغب المخرجة في قوله بالضبط، ولذلك تساءلنا كثيرا لما لم تفكر المخرجة "جوسلين صعب" في تقديم مذكرة تفسيرية لكل مشاهد- مع تذكرة السينما- من أجل استيعاب نقلاتها السريعة والفانتازية سواء على مستوى السيناريو أو المونتاج وبالتالي ينتفي كل هذا العذاب الذي جعلتنا نعيش فيه؟

ولكننا قد نستطيع التماس العذر للمخرجة "جوسلين صعب" في هذا الالتباس الذي ساد فيلمها نظرا لكونها نتاج طبيعي وابنة لهذا المجتمع العربي الخانق الذي أفرز العديد من الأفكار والعادات الشائهة تجاه إناثه وبالتالي أدى تراكم هذه الأفكار في الذهنية العربية الراغبة في الانطلاق أحيانا، إلى الكثير من البلبلة حينما تحاول الخروج من أسر كل هذه التراكمات؛ فتأخذها كلها دفعة واحدة، أو كتلة صماء بلا ترتيب أو تفتيت، مما يؤدي إلى عدم وضوح الفكرة مثلما ظهر أمامنا في فيلمها الذي قدمته.

ولذلك نراها تحاول نقاش كل هذه الأفكار دفعة واحدة من خلال "دنيا" (حنان ترك) خريجة كلية الآداب، المحبة للشعر، والتي تعد لرسالة علمية عنوانها "الحب في الشعر العربي"، والراغبة في ذات الوقت تعلم فن الرقص الإيقاعي لأن والدتها كانت من أشهر الراقصات- قبل وفاتها- من ناحية، ولأنها ترى أن الرقص ليس إلا فنا راقيا- مثله مثل غيره من الفنون- وليس عيبا وحراما وعارا لا بد من التبرؤ منه كما كان المجتمع ينظر إلى والدتها ومن ثم يدينها من ناحية أخرى، ولأنها ترى في الرقص وسيلة للانطلاق نحو آفاق رحبة وأكثر حرية وجمالا، ومن ثم التعرف على ذاتها أكثر من ناحية ثالثة؛ لاسيما أنها تقوم بدراسة الحب عند المتصوفة وحالات الشطح والوجد الصوفي لديهم، فنراها تتقدم لإجراء اختبار تتأهل من خلاله للاشتراك في مسابقة دولية للرقص تمثل فيها اسم مصر، إلا أننا نراها تقف على خشبة المسرح متشنجة غير قادرة على الحركة، وبالتالي حينما يطلب منها أحد أعضاء لجنة التحكيم محاولة الشعور

بنفسها قائلا (مالك متخشبة كدا؟ حاولي تحسي بجسمك شوية) نراها تقول (أنا عمري ما شفت جسمي، أول مرة شفت صورة واحدة عريانة كانت في السينما) وسرعان ما تتهاوى أرضا لتجلس في وضع الجنين مبررة ذلك بأنها دائما ما تجلس هكذا حتى لا يراها أحد.

لعل هذا المشهد الذي قدمته المخرجة "جوسلين صعب" في بداية فيلمها له من الأهمية بمكان ما يدلل على أزمة تلك الفتاة التي نشأت في مجتمع يحرم دائما، بل ويجرم إمكانية تعرف الإنسان على ذاته أو جسده؛ وبالتالي ينظر الجميع إلى الجسد باعتباره سجنا خانقا يضطر الإنسان منا طوال عمره حمله والحياة داخله على الرغم من رفضه له والنظر إليه نظرة دونية باعتباره دنسا وعيبا وحراما وثقلا وأداة من أدوات الفجور والفسق والخروج على العرف الاجتماعي، نقول أن هذه النظرة المتدنية تجاه الجسد والتي نتمتع بها بلا منازع في المنطقة العربية عامة هي التي جعلت مثل هذه الفتاة تخشى حتى مجرد النظر إلى جسدها عاريا والتعرف عليه، ومن ثم تحول جسدها الذي تحيى داخله ليل نهار إلى مجهول بالنسبة لها تخشاه ويخشاها، تحاول ترويضه فيرفضها وترفضه، في حين أنها لو حاولت التعرف عليه والتصالح معه لاستطاعت أن تعيش بشكل أكثر طبيعية وحيوية وانسجاما، ولاكتسبت سعادة داخلية تجعلها دائما مقبلة على حياتها.

إلا أننا من خلال شخصية "دنيا" (حنان ترك) التي تم تقديمها بهذا الشكل نلمح أنها الشخصية الأساس والمحور الرئيس الذي يدور حوله الفيلم، ومن ثم نجد أن جميع الشخصيات الأخرى مجرد شخصيات هامشية تدور في فلك تلك الشخصية الرئيسية من أجل اكتمال الدائرة، فيما عدا شخصية "بشير" (محمد منير) الشخصية الأخرى الموازية "لدنيا" (حنان ترك) والذي تم تقديمه باعتباره أديبا متفتحا ينادي بالتقدمية والحرية والدفاع المستميت عن إجازة نشر النسخة الهندية -الأصلية- من كتاب "ألف ليلة وليلة"، والمدافع دائما عن شعر الحب عند كل من بشار بن برد، ابن عربي، أبو نواس، وما قاله "ابن حزم الأندلسي" في "طوق الحمامة"، وما إلى ذلك من الأمور التي يراها المجتمع المنغلق دائما باعتبارها مجون وفجور وفيها شيء غير قليل من الكفر، ونتيجة لهذه الأفكار التي يتبناها ويصرح بها على الملأ، بل ويكتب العديد من المقالات دفاعا عنها يضربه مجموعة من المتعصبين دينيا- الذين باتوا اليوم سمة لمجتمعاتنا العربية وكأننا قد صرنا عبارة عن مجتمع ضخم من المتعصبين-، نقول أنهم يضربونه ضربا مبرحا حتى يصاب بفقدان البصر التام، بل ويتم منع معظم مقالاته من النشر خشية المد الديني والآراء المتخلفة من حوله والسياق الاجتماعي الخانق، إلا أنه بالرغم من ذلك يصر على الحياة والتعامل مع حياته الجديدة- وسط إظلام البصر- فيحاول الاستفادة من جسده والتعامل معه وكأنه عيناه اللاتي تم فقدانهما- في إسقاط مباشر على أهمية التعرف ومن ثم التصالح مع الجسد- فيذهب إلى مدرب الرقص الذي تتدرب عنده "دنيا" (حنان ترك) ليدربه فن التعامل والتعرف على الجسد الذي يصبح بديلا لعينيه فيرى من خلاله.

ربما كانت هاتان الشخصيتين الرئيسيتين هما الشخصيتين الأساس التي قام الفيلم عليهما من أجل نقاش فكرته الأساسية نحو الحرية والانطلاق والتعرف على الذات والجسد، وختان الأفكار المقابل لختان الإناث وما يترتب على ذلك فيما بعد، إلا أن المخرجة- وكاتبة السيناريو- "جوسلين صعب" كي تحاول التأكيد على فكرتها أكثر، أو بمعنى آخر كي تطمئن إلى وصول الفكرة إلينا واضحة- باعتبارها تفترض دائما غباءنا وعدم قدرتنا على التقاط الفكرة- خلقت لنا مجموعة أخرى من الشخصيات التي أضرت بالفيلم أكثر مما أفادته، فرأينا "عنايات" (عايدة رياض) سائقة التاكسي وجارة (حنان ترك) في الحي الشعبي الذي تقيم فيه، والتي قدمها الفيلم

باعتبارها إحدى الزوجات التي تعاني من عدم الارتواء الجنسي نتيجة ختانها؛ ولذلك تصر على عدم إجراء عملية ختان لصغيرتها "ياسمين" حتى لا تعاني فيما بعد مما تعانيه هي، ولكن جدة الطفلة تصر إصرارا تاما على ختان الطفلة وبالتالي تقوم بختانها دون علم أمها مبررة ذلك للطفلة بقولها (دا جرح صغير عشان لما تكبري تبقي ست محترمة) في إسقاط على العقلية العربية التي ترى في ذلك الجزء الصغير (البظر) سببا لكل الشرور والفسق الذي من الممكن أن يدور حولها على الرغم من وجود الكثيرات من الفتيات المختونات اللاتي يمارسن البغاء، إلا أننا دائما لا نحب تأمل الأمور بل نأخذها كما توارثناها مما أدى إلى هذه العقلية العقيمة.

كما نرى "أروى" (سوسن بدر) الدكتورة المشرفة على رسالة "دنيا" (حنان ترك) وصديقة الأديب "بشير" (محمد منير) في ذات الوقت، والتي تم تقديمها أيضا باعتبارها تعاني من عدم الارتواء الجنسي لذات السبب الذي تعاني منه "عنايات"، إلا أنها تحاول التغلب على ذلك بحبها لزوجها (خالد الصاوي) ونظرا لثقافتها وتفتحها فهذا من العوامل التي تساعدها على اجتياز أزمتها الكابوسية الملازمة لها طول حياتها ألا وهي عدم الارتواء الجنسي.

وهناك شخصية أخرى وهي "ممدوح" (فتحي عبد الوهاب) الذي تربطه علاقة حب مع "دنيا" (حنان ترك) والراغب فيها رغبة جنسية ملتهبة طوال الوقت، إلا أنه حينما يتزوجها يبدأ في الزهد فيها لأنه يراها باردة جنسيا وغير قادرة على تلبية رغباته الجنسية نتيجة لنفس السبب الذي تعاني منه "عنايات" (عايدة رياض)، "أروى" (سوسن بدر) مضافا إلى ذلك أنها لم تتعرف على جسدها من قبل وبالتالي فهي غريبة عنه.

ربما نلاحظ من خلال هذه التوليفة التي قدمتها لنا المخرجة "جوسلين صعب" أن جميع الشخصيات تقريبا هي تنويعة واحدة وصورة واحدة لذات الفكرة التي تدور في فلكها، وهي فكرة الظمأ الجنسي والبرود المستفحل في المنطقة العربية لدى إناثها نتيجة فعل الختان وما يسببه من مشاكل بالإضافة إلى ما رسخ في

الذهنية العربية من أن طلب المرأة للجنس حتى ولو كان هذا الطلب موجها لزوجها يعد فسقا وفجورا وقلة أدب وبالتالي ينظر الرجل للمرأة التي تطلب حقها الطبيعي في ذلك باعتبارها داعرة أو غير صالحة كي تكون زوجة له أو أما لأولاده، ولذلك نرى "أروى" (سوسن بدر) على الرغم من كونها متعلمة ومثقفة تنصح "دنيا" (حنان ترك) بالتمنع دائما على زوجها ومن ثم تعلمها هذا الفن- فن التمنع الجنسي- قائلة لها ألا تشعره على الإطلاق بأنها هي التي تريده أو ترغبه وألا تطلب منه ذلك أبدا!

ولكن هل من الممكن صناعة فيلم بمثل هذه الطريقة؟

لقد لاحظنا من خلال الفيلم أن المخرجة "جوسلين صعب" قدمت سيناريو مهلهلا ومفككا تماما لا يربطه أي رابط موضوعي أو منطقي؛ فبدت جميع العلاقات بين جميع الشخصيات لاعقلانية وغير مبررة، فنحن لم نعرف ما هو الرابط المنطقي الذي يجعل فتاة تحضر لرسالة علمية في الجامعة على علاقة وطيدة وحميمة مع سائقة التاكسي "عنايات" (عايدة رياض) سوى أنها جارتها، ثم ما هي علاقة "عنايات"- إذا ما تغاضينا وقبلنا علاقتها "بدنيا" (حنان ترك)- بالدكتورة المشرفة على رسالة "دنيا"- أي "بأروى" (سوسن بدر)- وأيضا ما الرابط المنطقي الذي من الممكن أن يربط "عنايات" (عايدة رياض) بالأديب والمفكر "بشير" (محمد منير)؟- نلاحظ هنا أن "عنايات" على علاقة وطيدة بكل من دنيا، أروى، بشير، بل وأيضا بممدوح حبيب "دنيا" على الرغم من الفارق الفكري والاجتماعي الشاسع بينهم-.

ومن جهة أخرى رأينا أن "ممدوح" (فتحي عبد الوهاب)- مثله في ذلك مثل جميع الشخصيات تقريبا- ينبع من فراغ كي يظل معلقا في الفراغ؛ فلم تقدم لنا "جوسلين صعب" من خلال السيناريو الذي كتبته أي شيء عنه سوى أنه مجرد شخص بزغ فجأة وتواجد في الدنيا فقط كي يكون حبيبا "لدنيا" (حنان ترك) وبالتالي تظهر مشكلتها وأزمتها الجنسية من خلاله حينما يتزوجها- على الرغم من أن أزمتها الجنسية نتيجة الختان كان من الممكن أن تظهر بأي شكل آخر وبدون داعي لوجود شخصية ممدوح، إما بالدخول في علاقة مع "بشير" (محمد منير)، أو بالقول والإيحاء، أو بأي شكل آخر- إلا أن المخرجة "جوسلين صعب" فضلت الطريق الأسهل بخلق شخصية من فراغ لا داعي لوجودها داخل السيناريو، فلم تعطينا أية معلومات عنه سوى أنه حبيبا "لدنيا" فقط- حتى أننا تساءلنا منذ متى وكيف كان هذا الحب؟ وما هي وظيفة "ممدوح" أو عمله، وما هو تاريخه، وهل توجد أية معلومات عنه أم لا؟ كذلك الفنان (خالد الصاوي) الذي ظهر في مشهدين فقط طوال الفيلم لم ندر على الإطلاق ما هو دوره، ولماذا اشترك في الفيلم أساسا، هل ظهر كي يخبرنا بأنه زوج "أروى" (سوسن بدر) وأنه بالرغم من كل شئ يحبها؟ أم أنه كان يمر بالمصادفة أثناء تصوير الفيلم فرغب في الظهور بالكادر ويختفي بعد ذلك؟ أم أن "جوسلين صعب" أرادت تحيته حينما لمحته يمر من أمامها أثناء التصوير فطلبت منه الظهور في هذين المشهدين؟

أعتقد أن عدم وجود رابط وتسلسل منطقي لأحداث السيناريو كان السمة الغالبة عليه وبالتالي صار السيناريو مفككا غير مفهوم، ومن هنا تساءلنا عن السبب الذي يجعل "بشير" (محمد منير) يقيم إقامة دائمة في أحد (البنسيونات)، هل لأنه ليس لديه منزلا يقيم فيه؟ أم لأنه غريب عن المكان (المدينة)؟ أم لأن المخرجة أرادت له الإقامة في هذا الفندق ومن ثم يكون على علاقة جنسية مع صاحبة ذلك البنسيون؟ ولكن إذا ما وافقنا "جوسلين صعب" وتغاضينا عن الأسباب فهناك سؤالا آخر يطرح نفسه بوجاهة وهو ما المبرر الأساس لمثل هذه العلاقة بين صاحبة البنسيون وبين "بشير" (محمد منير)؟ وما هي الفائدة والمبرر الدرامي التي عادت على

السيناريو بمثل هذه العلاقة وغيرها من العلاقات المفككة طيلة هذا الفيلم؟ وما هو دور "جمالات" (مي شندي) صاحبة البنسيون أساسا في السيناريو إلا مضاجعة "بشير" (محمد منير)؟ وهل لهذا علاقة بالموضوع الذي يتحدث عنه الفيلم؟

لقد وقعت "جوسلين صعب" في العديد من الأخطاء التي جعلت الأمور لا عقلانية، وبالتالي نسفت فكرتها الأساسية التي قام عليها الفيلم؛ فنحن نرى "عنايات" (عايدة رياض) منذ بداية الفيلم امرأة شهوانية ملتهبة تمارس الجنس مع زوجها ليل نهار، بل وتقوم بإغرائه دائما لممارسة الفعل الجنسي حتى أننا نراها كثيرا خارجة من الحمام مما يؤدي إلى تعليق حماتها (انتي ماوراكيش حاجة غير الحمام ليل نهار؟)، بل نراها تقف في شرفة منزلها مشيرة إلى زوجها المتواجد في الشارع كي يصعد لممارسة الجنس، فهل يعقل أن تكون مثل هذه المشاهد خادمة لذات الفكرة التي تركز عليها "جوسلين صعب"، أم أنها ناسفة في الأساس للفكرة ذاتها؟

أعتقد أن النساء العربيات المختونات لو كن بمثل هذه الحرارة اللاهبة والرغبة الدائمة في الجنس- حتى ولو كان الأمر مجرد تظاهرا- لرغبنا جميعا أن تختن جميع إناثنا كي يمتعننا مثل هذه المتعة، ولهذا نرى أن المشهد الذي بكت فيه "عنايات" (عايدة رياض) حينما علمت بختان ابنتها ومن ثم قالت معلقة (خلاص بقيتي زيي) مشهدا ملفقا وغير صادق لأنه من الأدعى لها أن تسعد بدلا من البكاء لأنها صارت مثلها وبالتالي ستكون ملتهبة الرغبة مثلها فتسعد وتسعد زوجها.

ربما كان هذا التفكك في السيناريو، وبزوغ العديد من الشخصيات والأحداث الفرعية الفجائية سببا رئيسيا في ظهور الكثير من العيوب الخطيرة في المونتاج؛ فظهر لنا الفيلم وكأنه لم يمر بعملية المونتاج أساسا، أو أن من قام بمونتاجه لم يكن منتبها بالقدر الكافي فكانت هناك قفزات مونتاجية مفاجئة وغير مبررة أدت إلى شعورنا بالغباء وعدم فهم ما يدور أمامنا على شاشة العرض، بالإضافة إلى الرتابة والإملال

اللذين شابا الفيلم نتيجة المونتاج غير المتناسق- النابع عن السيناريو المفكك- مما جعلنا راغبين غير مرة في انتهاء هذا الفيلم- العذاب- بالنسبة لنا.

ليت المخرجة "جوسلين صعب" تنتبه إلى أن فيلم "دنيا" على الرغم من تحمسنا الشديد لفكرته الهامة إلا أنه من الأفلام التي ستمر على المشاهد الواعي لفن السينما وكأنها لم تكن؛ نظرا لعدم الاهتمام بصناعته أو نضجه بالقدر الكافي، فهو لم يأخذ حقه لديها ولذلك خرج بمثل هذا الشكل المشوه، أو على حد تعبير "دنيا" (حنان ترك) حينما قالت لجدة الطفلة "ياسمين" حينما ختنتها (انتي فاكرة إن انتي كدا بتحميها؟ انتي طفيتيها، حتفضل طول عمرها عاملة زي الطبيخ المايع) كذلك فيلم "دنيا" سيظل دائما مثل الطبيخ المايع، لا هو بالفيلم السينمائي الجيد الجاد، ولا هو بالفيلم التافة الذي لا معنى له.

ولذلك لم نر في الفيلم من مميزات سوى الموسيقى التصويرية البديعة للموسيقي" جان بيير ماس" التي كانت دائما ما توحي لنا بالانطلاق وحب الحياة والصخب والجنون المناسبين تماما لايروتيكية حب الجسد وجنونه إذا ما تعرفنا عليه.

إلا أننا نود الإشارة إلى تلك الضجة الكبرى التي أثارها العديد من النقاد وأشباههم حول فيلم "دنيا" ممن تقولوا وهاجموا مخرجته" جوسلين صعب" بدعوى أن الفيلم مسيء لما أسموه "سمعة مصر" وتشويهها، نظرا لأن هذه الجملة الغريبة بدأت تطفو على السطح الآثن لثقافتنا في الآونة الأخيرة لمهاجمة كل ما هو صريح وجرئ في التناول، فصارت موازيا موضوعيا لما يطلقه البعض بقولهم "السينما النظيفة"، ولذلك نتساءل كثيرا وبجدية، ما المقصود بسمعة مصر التي يرغب الجميع في تشويهها؟ ولماذا يريد الآخر تشويه سمعة مصر، وهل باتت العقلية التآمرية لدينا كعرب هي الأساس حتى أصبحنا نتلقى أي ما يرد إلينا من الآخر- جوسلين صعب اللبنانية- وكأنه تآمر؟ وهل صارت مصر هي الدولة الوحيدة التي لها سمعة ولا بد من تشويهها؟ وهل هذا يعني أن مصر امرأة داعرة في الأساس وتتخفى خلف سمعتها الطيبة التي تقوم دائما بتصديرها للناس وأن مثل هذه الأفلام تحاول بأية طريقة فضحها ومن ثم توضيح تاريخها العريق في البغاء؟

أعتقد أن مثل هذه الكلام الطفولي غير المسئول من مجموعة من النقاد- بافتراض أنهم نقاد سينما مسئولين وفاهمين- على كل فيلم يحاول التصدي للعديد من المشاكل التي تنخر كالسوس في مجتمعنا لا بد أن يتوقف أو فليتوقفوا هم عن تناول السينما وقضاياها ما داموا غير قادرين على استيعاب ما يتم تقديمه لهم؛ لأنه ليس من المطلوب منا ومن جميع المخرجين التغاضي عن كل ما يدور حولنا من فساد وعادات كريهة وأفكار بالية حتى لا نمس سمعة مصر المصونة.

كما أظن أن هؤلاء النقاد -إذا كانوا يعلمون- يعرفون جيدا أن التصوير في شوارع القاهرة ومناطقها العشوائية ليس من الأسباب المؤدية إلى فضحنا أمام العالم ومن ثم تشويه سمعتنا؛ لأن هذا هو واقعنا الحقيقي الذي نحياه، ولأنهم إذا كانوا قد انتبهوا لما قالوه ولعرفوا قبلها أن خروج الكاميرا للتصوير في الشارع موجود في تاريخ السينما المصرية منذ فترة ليست بالقليلة، ولعلنا نذكر في هذا السياق أفلام الواقعية الجديدة وروادها، وكيف خرجت كاميرا محمد خان، خيري بشارة، عاطف الطيب، داود عبد السيد وغيرهم إلى الشارع وجميع المناطق العشوائية للتصوير فيها.

يبدو لي الأمر وكأنه مسرحية عبثية قادمة من أعماق مسرح "صمويل بيكيت" نتيجة لغيرة طفولية وغير مبررة من مخرجة جادة حاولت- وإن أخفقت- نقاش العديد من السلبيات داخل مجتمعنا المصري والعربي وما يدور فيه من صخب نحاول إخفاءه تحت السطح الآثن لثقافتنا.